صراع القديم والحديث من خلال الطائيين

ط/د.بودية شهيناز
جامعة سيدي بلعباس

يعد العصر العباسي مهد التغيرات الجذرية التي شملت العمران والأدب وخاصة الشعر وذلك الإطلاع شعرائها على ثقافات الآداب الغربية.

تغير المسار الأدبي بتغير الزمن وظهور مناهج مختلفة والتي لابد من دراستها بطرق متعددة التي يضعها النقاد أنفسهم كمعيار للنصوص الأدبية أما عند النقاد الذين وضعوا النص الشعري القديم بين أيديهم وراحوا يدرسونه حتى النخاع وهم كثيرون، كالجاحظ والأمدي والجرجاني وقدامة والمرزوقي وآخرون، الذين وازنوا بين الشعر العربي القديم والشعر الغربي بحيث لا يوجد شعر فيه قيود إلا الشعر العربي وبدأ التغير بتجديد التشكيل اللغوي والوزن والقافية، واستغلوا تلك الثقافات استغلالا واضحا على الشعر.

شرع التنافس بين الشعراء والإتيان بكل ما هو جديد ومميز من الغموض والتعقيد في الكلام والألفاظ الغربية فكان عنوان الشعر العباسي هو عمق الفكرة وغرابة الصورة.

لم يكن قبول هذا الشعر الحديث من طرف النقاد وهذا في القرن الثاني للهجري وهم بذلك متصورين أن الشعر المحدث يقوم على كل ما هو سهل من جميع الجوانب لكن الحقيقة خلاف ذلك لأن الشعر المحدث لا يأتي منسابا بل بتدبر وجهد فكري في قول الكلام المنمق والفلسفي فكان الصراع بين مؤيد ومعارض، مثل "ابن الأعرابي" من فرقة المعارضين والذي لم يتقبل حقيقة التجديد فكان يقول: "أسعار هؤلاء المحدثين مثل أبي نواس وغيره مثل الريحان يشد يوما والأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيبا"[1].

اتخذ العلماء في بادئ أمر الشعر المحدث قرارات غير منصفة بحق الشعراء ممن اتجهوا لهذا الشعر لكن بدأت الأمور بالتغير والصورة أصبحت واضحة خاصة في شعر أبي تمام الذي كان آنذاك من جهابذة الشعراء، كما كان أبا تمام لم يتنكر للشعر القديم بل زاد عليه، "لقد أخذ أبو تمام هذه الصورة القديمة ولم يقنع بالتجديد مسلم فيها وإنما ظل يجور منها ويغير منها ويعدل من أوضاعها ويضيف ألوانا مبتكرة وخطوطا جديدة حتى استقامت له في هذه الصورة"[2].

لم يكن رفض العلماء والنقاد للشعر المحدث بصفة عامة بل فكرة تجاوز الشعر القديم ونكرانه.

لم تظهر قضية الصراع بين القديم والحديث في العصر العباسي فحسب بل قبل ذلك يقول الجاحظ: "وقد رأيت أناسا منهم يبهرجون أشعار المولدين ويستسقطون من رواها، ولم أرقط ذلك إلا في رواية الشعر غير بصير بجوهر ما يروي ولو كان له بثر لعرف موضع الجيد ممن كان وفي أي زمان كان"[3].

تجلي في شعر أبي تمام الصدق والجودة، من حيث خانت له النظرة الفلسفية العميقة أدت لاستهجانه من قبل النقاد، وذلك لعدم إدراكهم التام لهذا القالب الجديد الغامض، ولكن ليس بالنسبة للناقد البصير الدارس للثقافات الأجنبية والذي له رؤية مغايرة عن النقاد الأوائل بحيث يحكم الجاحظ على الشعراء المولدين في عصر قديم يقول الجاحظ: "وكذلك كل من جود من جميع شعره، ووقف عند كل بيت قاله، وأعاد فيه النظر حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة"[4].

وجد الجاحظ أن الشاعر الذي يتصنع ويبذل جهدا في شعره ولم يأته فطرة يخرج شعره خال من الأخطاء ومستوية في الجودة لكن أغلبية النقاد يرفضوا هذا الشعر المحدث بأسس الشعر القديم يقول القاضي الجرجاني: "ولست أفضل في هذه القضية بين القديم والمحدث والجاهلي والمخضرم والأعرابي والمولد إلا أني أرى حاجة المحدث إلى الرواية أمس وأجده إلى كثرة الحفظ أفقر"[5].

إن التكلم عن العصر العباسي فإننا نستذكر الشاعر أبا تمام الذي قلب موازين الشعر في كل فرصة أتيحت له وما جعل النقاد ينقدونه هو وأسلوبه المبالغ فيه لما حصله من الاستعارات الغربية واتجاهاته في البديع المبالغ فيه يقول الآمدي في كتابه الموازنة: "أول من أفسد الشعر مسلم بين الوليد ثم اتبعه أبو تمام واستحسن مذهبه وأحب أن يجعل كل بيت من شعره غير خال من بعض هذه الأصناف فسلك طريقا وعرا واستكره الألفاظ والمعاني، ففسد شعره وذهبت طلاوته ونشفا ماؤه"[6].

أما عن قضية تسمى "عمود الشعر" يذكر اسم الآمدي وكتابه "الموازنة بين أبي تمام والبحتري".

إن التغير الذي جرى في العصر العباسي، شد انتباه النقاد وتكلم عنه الكثير وما قام به الآمدي في كتابه هو التطرق إلى قضايا السرقات الشعرية والصبغة وقضية اللفظ والمعنى واستظهار محاسن ومساوئ الشاعرين.

إن زمن أبي تمام حافل بتغيرات والزخارف البديعية التي اعتمدها كثيرا في شعره وغاص فيها، مما لاقى النقد ممن عارضوا هذا التغير الذي خاضه واعتبر مذهبه غريب عما ألفه النقاد يقول الآمدي: "وشعره لا يشبه أشعار الأوائل ولا على طريقتهم لما فيه من استعارات البعيدة والمعاني المؤلدة"[7].

اختلف أبي تمام حبيب بن أوس الطائي عن شعراء عصره في البنية الشعرية ويعود ذلك لاعتماده على ثقافته المتنوعة الواسعة، بحيث وضعه النقاد في كفة والشعراء الآخرون في كفة، وذلك لما شوهد له من ابداع وتنوع الثقافات الدينية والتاريخية والفلسفية وما زاده تميزا استغلال ثقافته وتوظيفها بشكل رائع وفي نفس الوقت لم يبتعد عن أسس الشعر القديم لكنه وظف الفنون البديعية بشكل كثيف.

اعتبر النقاد أن البديع من اختصاص أبي تمام الذي أسس مذهبه على الصنعة وكذلك الصناعة العقلية يقول يوسف خليف: "فأساس العمل الفني عنده هو هذه المزاوجة بين العقل والشعور أو بين الفكر والعاطفة"[8].

ألم الشاعر أبي تمام بالشعر القديم والحديث مما جعله يحمل لواء عصره، وتلقنه البديع من معلمه المسلم بن الوليد جعله متمكنا من البديع ولأنه يعتبر صاحب هذا المذهب يقول ابن المتعز: "أول من وسع البديع... وأول من عقد هذه المعاني اللطيفة الظريفة واستخراجها"[9].

ولم يتمكن فقط في الاستعارة بل برز كذلك في ثلاثة فنون: التشبيه، الجناس، الطباق وعني باللفظ والمعنى.

لم يقطع أبي تمام صلته بالهندسة الخليلية بل بقي متحفظا على المقدمة الطللية لكن بأسلوبه الفلسفي الغامض.

تناول القدامى سابقا البديع لكن ليس بالشكل المتعمد عكس شعراء العصر العباسي الذي شاع بشكل كثيف وعميق.

يرى الآمدي في قضية البديع أن أبي تمام أفاض في البديع والإغراق في الصنعة بحيث أوقعه في أخطاء الاستعارات والألفاظ والمعاني ويذكر الآمدي أن بن الأعرابي: "يرى أن مذهب أبي تمام في الشعر مذهب جديد لا عهد للعرب به يخالف تمام المخالفة ما يعرفه النقاد من مذاهبه القديمة"[10].

يخالف الآمدي رأي ابن الأعرابي يرد عليه حيث يقول: "ليس في اختراعه لهذا المذهب على ما وصفتهم ولا هو بأول فيه ولا سابق إليه بل تسلك في سبيل مسلم واحتذى حذوه وأفرط وأسرف وزال عن المنهج المعروف والسنن المألوفة وعلى أن مسلما أيضا غير متبدع لهذا المذهب ولا هو أول فيه"[11].

يكشف الآمدي على أن "أبي تمام" ليس الأول من قام بهذا المذهب ولكنه غاص في الاستعارة والطباق والجناس مقارنة بالشعراء القدامى.

أعاب النقاد على شعر أبي تمام لكثرته لصنعة ويذكر يوسف خليف يقول الباقلاني في كتابه (إعجاز القرآن): "وربما أسرف أبو تمام في المطابق والمجانس ووجه البديع والاستعارة، استثقل نظمه واستوخم وصفه"[12].

كان الشاعر قديما يقع في الخطأ: كالقلب، السرقات والمغاظلة وغير من الأخطاء لكن كان يسامح عليها نقيض الشاعر المحدث الذي يحاسب على كل الأخطاء لأن شعره لا يقال على البديهة بل بتفكير وتدبير يقول الآمدي: "وأما المتأخر الذي يطبع على قوالب ويحذو على أمثلة ويتعلم الشعر تعلما ويأخذ تلقنا، فمن شأنه أن يتجنب المذموم ولا يتبع من تقدم إلا فيما استحسن منهم استجيد لهم واختير من كلامهم"[13].

نقب أغلب النقاد كالجاحظ وابن المعتز والآمدي على كثرة الاستعارات في شعر أبي تمام وكذا سوء استعماله، ويثبت الخلل في استعاراته في بعدها وغموضها يرى الآمدي حسن استعماله للاستعارة في هذا البيت:

"وأنجدتم من بعد إتمام داركم

فيا دمع أنجدني على ساكني نجد"[14]

أما التشبيه بالنسبة أبي تمام، أشار البلاغيون إلى عدم تناسق أبا تمام في استخدامه للتشبيه في الشعر جال الجناس الذي أكبر منه في شعره ومزجه مع التصوير وهذا لا ينبغي له، بحيث أحسن استعماله في مواضع وأساء استعمالها في مواضع أخرى نرى ذلك من خلال هذا البيت:

"ذهبت بمذهب السماحة فالتوت

فيه الظنون أم مذهب أم مذهب؟"[15]

وخطأه أنه أكثر من الجناس والمبالغة فيها مما يفسد شعره، وتأتي إلى ذكر الطباق عند أبي تمام الذي اعتمده بكثرة.

"بقاعية تجري علينا كؤوسها

فنبدي الذي تخفي ونخفي الذي تبدي"[16]

ويظهر الطباق في نبدي تخفي وبين تخفي وتبدي.

أما عن قضية اللفظ والمعنى اهتم الشاعر بالمعنى والفكرة متجاهلا اللفظ وصياغته وهذا ما كان يخل بشعره لأنه لم يكن يوازن بين اللفظ والمعنى، استخدم الشاعر المعاني الغامضة قصدا لإخفاء غرضه لأنه فكر فيه ودبر حتى أخرج المعنى.

يقول الآمدي: "إن ما أتى به أبو تمام من المعاني لا يعرف ولا يعلم غرضه فيها إلا مع الكد والفكر وطول التأمل، ومنه ما لا يعرف معناه إلا بالظن والحدس"[17].

تعمد الشاعر أبا تمام التعقيد في المعنى وذلك بغية إخفاء ما يقصده، وما عالج الآمدي في كتابه الأخطاء التي ارتكبها أبو تمام والبحتري في فنون البديع اللفظ والمعنى في شعره وما تكلمنا عنه يخص أبا تمام الذي مثل المذهب الجديد بالموازنة بشاعر آخر الذي مثل عمود الشعر هو البحتري هو أبو عبادة الوليد بن عبد الله شاعر عربي طائي، الذي مثل المذهب التقليدي ويعتبر من المحافظين على عمود الشعر بالرغم من ازدهار الشعر العباسي وما شهده من تغيرات تمسك البحتري بكل ما هو قديم بالمقارنة بمعلمة أبي تمام، فقد ظل البحتري على الأصول الموروثة، إذن هما شاعرين من نفس العصر لكن مختلفان في نفس الوقت.

عاش البحتري حياة بدوية والتي كان أثرها واضحا في شعره وتعلقه بعصور الشعر، كما وأن ثقافته لم تكن واسعة ومختلفة إلا أن اتصال البحتري بأبي تمام الذي كان مطلعا على الثقافات الأجنبية، مما لا شك فيه أن البحتري تطلع عليها من خلال معلمه، برغم من ذلك لم يظهر على شعره، وظل متمسكا بالمذهب التقليدي ولم يتبع أبا تمام.

لم يلقى البحتري النقد الذي لاقاه أبا تمام عن الألوان البديعية وحتى في قضية اللفظ والمعنى، أما في التشبيه عرف البحتري بحسن التشبيه يقول عروة عمر: "وتشبيهات البحتري إليها حسنة، لاسيما ما يتعلق بالخيال فهو أحد المحسنين في ذلك:

خيال ملم، أو حبيب مسلم، وبرق تجلى أو حريق مضرم"[18]،لم يذكر البحتري النقاد عيبا في تشبيهات البحتري.

أما في الفنون البديعية، ونبدأ بالجناس لم يفارق البحتري في الجناس طريقة بالقدامى، فقد أورد ابن المعتز مما يستحسن من تجنيسات البحتري:

"سلبوا وأشرقت الدماء عليهم

محمرة فكأنهم لم يسلبوا"[19]

والطباق هو لون بديعي آخر فرض فيه البحتري بالمقارنة بالألوان الأخرى ولكنه لم يخرج عن المألوف.

"وما الناس إلا عصبتان جهده

قرنت بؤسا وهاتيك أنعما"[20]

وعن قضية اللفظ والمعنى، اعتمد البحتري اللفظ في مذهبه يشير ذلك عبد العزيز سيد الأهل: "وكان البحتري ذا إحساس قوي وإدراك نابه لما يجب أن يكون عليه اللفظ المفرد ولذلك اختار اللفظ عربيا لاسيما إذا كان من الألفاظ الاشتقاق"[21].

لم يفارق البحتري الطريقة المعهودة القديمة، واعتماده في شعره حسن اختيار الألفاظ السهلة المعبرة عن المعنى وألفاظ ذات رنين يخرس صوتي لمعانيه الموحية، فهو لم يساير تغيرات عصره بل ارتفع في شعره. "أطلق عليه القدماء على شعره وما وصفوه أنه سلاسل ذهب"[22].

وهذا لحرصه الشديد لعدم تخطي الموروث، واعتماده البساطة مبتعدا في ذلك عن الغموض، لأنه كان مستهجنا من النقاد القدامى، ولعل تعلمه في صغره على الأصول، والأسس الشعر العربي رسخ في ذهنه ولم يستطع التخلي عنها.

الموازنة بين أبي تمام والبحتري:

تكلم الآمدي عن شاعرين من زمن واحد، وسل من قصائدهما مساوئ ومحاسن كليهما، تميز أبو تمام بثقافته الواسعة وبصر بالثقافات الأجنبية، أما البحتري لم يكن على دراية بالثقافة الأجنبية إلا ما اقتبسه من معلم أبا تمام إن قيام الآمدي بهذه موازنة ليبين مساوئ الشاعرين ومواضع الجودة.

يقول عيسى علي العاكوب، تتمثل مساوئ أبي تمام في السرقات وأخطائه في اللفظ كما أنه بعيد الاستعارات، ومستنكره في الجناس والطباق ورديء التجنيس وسوء نظم أبي تمام وتعقيد ألفاظه ونسجه وحشي ألفاظه [المعاظلة وحوشي الكلام] اضطراب الأوزان في شعر أبي تمام[23].

أما عن مساوئ البحتري تتمثل في "سرقات البحتري من الشعراء عامة وخاصة من أبي تمام، أخطاء البحتري في المعاني سوء التقسيم في شعر البحتري التعقيد في شعره، ردئ التجنيس وكذا اضطراب الأوزان في الشعر البحتري"[24].

تشابه الشاعرين في بعض الأخطاء المتمثلة في السرقات وردئ التجنيس والتعقيد واضطراب الأوزان.

أما الاستعارات لم يذكر عنها أخطاء، أو حتى عن الجناس أو الطباق أو وحش ألفاظ وأخطائه في اللفظ والمعنى، ومساوئ البحتري مختلفة عن أبي تمام في سوء التقسيم في شعره، وأخطائه في المعاني.

إن مساوئ أبا تمام كثيرة بالمقارنة بالبحتري أخطاء أبي تمام في اللفظ والمعنى، أما البحتري فخطأه في المعاني فقط وكذلك أنه بعيد الاستعارات ومستكره الجناس والطباق، وسوء النظم فوحسي ألفاظه المعاظلة.

أما البحتري فخطأه الوحيد هو السرقات من الشعراء.

لعل البحتري استغنى عن طريقة أبي تمام الكثير الفنون ورجع إلى مذهب الأوائل، الاستعارات الجناس والطباق.

يقوم الآمدي بالموازنة بين هذين الشاعرين فيذكر البحتري من خلال بيته:

"تعودك منها، كلما اشتقت ذكره

ترقرق عنها غبرة، ثم تسجم"[25]

يرجع الآمدي جودة بيت البحتري لتمسكه بالتقاليد القديمة، ويذكر بيت لأبي تمام:

"وظللت أنشده وأنشد أهله

والحزن يأخذني ناشد أو منشدا"[26]

ينسب الآمدي شعر البحتري إلى "حلاوة اللفظ وحسن التخلص ووضع الكلام في مواضعه، وصحة العبارة وقرب المآتي وانكشاف المعاني وهم الكتاب والأعراب والشعراء والمطبوعون من أهل البلاغة"[27].

أما بالنسبة لأبا تمام يقول أن شعره "شديد التكلف صاحب صفة ومستكره الألفاظ والمعاني"[28].

إن وصول الشعر إلى ما هو الحال عليه في العصر الحديث من استبدال المصطلحات من القديمة إلى العصرية لمسايرة التطور والخروج من عمود الشعر والإتيان بأسس موازين جديدة يضعها نقاد في العصر الحديث لأن الزمن والعصر الذي يعاش يحكم على نوع الشعر ومصطلحاته وهو موسيقاه وهذا لا ينسينا مسك الشعر القديم وأيضا يعطي لشاعر حقه في شعره ولا أن نقيس كل الشعراء بمقياس واحد ولا بنظريات مضبوطة فلكل شاعر زاويته ويؤمن بفكرة أن أعذب الشعر أكذبه، فيعطي كل ما لديه وبالأسلوب الذي يراه ملائما سواء من حيث اللفظ أو الموسيقى.

الهوامش

[1]ينظر: الصولي (أبو بكر) أخبار أبي تمام، تحقيق صالح الأشقر، مطبوعات المجمع العلمي العربي، ط1، 1958، ص 14.

[2]يوسف خليف في الشعر العباسي نحو منهج جديد، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ص 98.

[3]الجاحظ، الحيوان،، تح: عبد السلام محمد هارون، منشورات مصطفى البابي الحلبي، 1965، ط2، ج3، ص 130.

[4]الجاحظ البيان والتبين، تج: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، دت، ج2، ص 13.

[5]القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، علي بن عبد العزيز الجرجاني تحقيق علي محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي المكتبة العصرية صيدا بيروت، ط1، 2006، ص 33.

[6]يوسف خليف في الشعر العباسي نحو منهج جديد، ص 99.

[7]الآمدي، الموازنة بين الطائيين، تطبيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة، بيروت، 1944، ص 11.

[8]يوسف خليف في الشعر العباسي نحو منهج جديد، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ص 97.

[9]ابن المعتز، طبقات الشعراء، تحقيق: عبد الستار أحمد خراج، مطبعة دار المعارف، مصر، ط2، 1968، ج1، ص 235.

[10]يوسف خليف في الشعر العباسي نحو منهج جديد، ص 97.

[11] الآمدي، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، ص 14.

[12]يوسف خليف في الشعر العباسي نحو منهج جديد، ص 100.

[13] الآمدي، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، ص 99.

[14] أبو تمام، ديوان، تسرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف، مصر، 1965، ج1، ص 116.

[15]أبو تمام، ديوان أبي تمام، شرح ديوان أبي تمام قدم له راجي الأسمر الكتاب العربي، 1998، بيروت، ج1، ص 78.

[16]أبو تمام، ج3، ص 118.

[17] الآمدي، الموازنة بين الطائيين، ص 132.

[18]البحتري، ديوان، دار الصادر، بيروت، 2005، ط2، ج1، ص 111.

[19]البحتري، ديوان، ج1، ص 111.

[20]البحتري، ديوان، ج1، ص 365.

[21]عبد العزيز سيد الأهل، عبقرية البحتري، بيروت، 1953، ص 56.

[22]ينظر: يوسف خليف في الشعر العباسي نحو المنهج جديد، ص 116.

[23]ينظر: عيسى علي العاكوب، التفكير النقدي، عند العرب، دار الفكر، بيروت، ط5، 2006، ص 235.

[24]ينظر: المرجع نفسه، ص 235.

[25]البحتري، ديوان، ج1، ص 111.

[26]أبي تمام، ديوان، ج1، ص 03.

[27]الآمدي، الموازنة بين الطائيين، ص 10.

[28]الآمدي، الموازنة بين الطائيين، ص 11.